الفصل الأول

فى رحاب الإمام

- النسب الشريف
- المولد الكريم والنشأة المنيفة

النسب الشريف

هو أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف.

فهو عربى قرشى هاشمى مطّلبى يلتقى مع الرسول ﷺ فى جده عبد مناف، ولذلك يقال عن الشافعى: إنه «ابن عم الرسول ﷺ.

ويقول ياقوت: «وهاشم هذا الذى فى نسب الشافعى ليس هو هاشما جد النبى ﷺ.. ذاك هاشم بن عبد مناف، فهاشم هذا هو ابن أخى ذاك».

وكان الشافعى بهذه الصلة بالنبى يعتبر نفسه من ذوى القربى بالرسول ﷺ، بل من سلالة «ذوى القربى» الذين ناصروا الرسول فى الجاهلية والإسلام، وانضموا إلى نصرة الرسول حين قاطعته قريش واحتملوا الأذى معه ﷺ.

وليس صحيحا إذًا ما يزعمه بعض المتعصبين ضد الشافعى من أنه ليس قرشيا بالنسب بل بالولاء فقط.

المولد الكريم والنشأة المنيفة

وُلد الشافعى بغزة من أرض فلسطين سنة خمسين ومائة، وهذا هو المشهور عند الكثيرين.. وهناك رواية تقول إنه وُلد بعسقلان، وهى بلدة تبعد نحو ثلاثة فراسخ من غزة، وعلى مرحلتين من بيت المقدس أو ثلاث، وهناك رواية أبعد من سابقتها وهى أنه وُلد باليمن،

وروى ياقوت عن الشافعى أنه قال: «وُلدت باليمن، فخافت أمى علىّ الضيعة فحملتنى إلى مكة وأنا ابن عشر أو شبيه بذلك».

وقد قيل للتوفيق بين هذه الأقوال الثلاثة أنه وُلد بغزة ونشأ بعسقلان، وعسقلان كلها من قبائل اليمن، وهذا معنى قول من قال أنه وُلد باليمن، أى بين قبائل كلها يمنية.

ويروى أن الشافعى وُلد فى الليلة التى مات فيها أبو حنيفة ولئن صح هـذا، والتأكد منه بعيد، إنها لمصادفة عجيبة أن يموت إمام فيولد عند موتـه إمام.. قال ابن حجر: وفيه إشـارة إلى أنه يخلفه فى فنِّه، يقول الأسـتاذ الدكتور محمـد إبراهيم الحفناوى: (هذا اللفـظ يقبل التأويل؛ فإنهـم يطلقون اليوم، ويريـدون مُطلق الزمان» وقال الشـيخ أبو زهرة- رحمـه الله-: «وقد ذهب الخيال ببعـض الكُتَّاب إلى أن يقول: إنه وُلد فى الليلة التى توفى فيها أبو حنيفة، ليقال: قد وُلد إمام، وتوفى إمام، لكيـلا يخلـو وجه الأرض من إمام فى باب من أبـواب الفقه، وما لهذا الادعاء فضل جدوى»[1].

مات أبوه وعمره سـنتان فانتقلت به أمه إلى مكة لتحافظ على شـرف نسبه فنشأ يتيما.

وأمـه امرأة من الأزد وليـس بصحيح ما قيل إنها من قريش، واسمها فاطمة بنت عبد الله الأزدية، وروى النووى عند حديثه عن أم الشافعى أن الرسـول ﷺ قـال: «الأزد أسـد الله فـى الأرض، يريـد الناس أن يضعوهـم، ويأبـى الله إلا أن يرفعهم، وليأتين علـى الناس زمان يقول الرجل: يا ليتنى كنت أزديا، ويا ليت أمى كانت أزدية».

(١) الأم للإمـام محمد بن إدريس الشـافعى تحقيق وتعليق الأسـتاذ الدكتور محمد إبراهيم الحفناوى- دار الحديث- ج ١ ص ١٣.

كمـا روى حديثا موقوفا جـاء فيه: «المُلك فى قريـش، والقضاء فى الأنصار، والأذان فى الحبشة، والأمانة فى الأزد». وتوفيت أمه فى مكة على أصح الأقوال.

وقد شـب الشـافعى فقيرا رقيق الحال ضيق العيش حتى احتاج وهو يطلب العلم إلى جمع قطع الخزف «الفخار» وقطع الجلود وسعف النخيل وعظام الجمال ليكتب عليها، وكان يذهب إلى الدواوين ويستوهب أهلها أوراقا ليكتب عليها.

يقول الشـيخ أبو زهرة: «والنشـأة الفقيرة مع النسـب الرفيع تجعل الناشـئ ينشأ على خلق قويم ومسـلك كريم إن انتفت الموانع، ولم يكن ثمة شذوذ؛ ذلك أن علو النسب وشرفه يجعل الناشئ منذ نعومة أظفاره يتجـه إلى معالى الأمور ويتجافى عن سفاسـفها، ويرتفـع عن الدنايا، فلا الفقر يصيبه بذل، ولا يتطامن عن ضعة ولا يرضى بالدنية، ويسعى إلى المجد بهمة وجَلَد ليرفع خسيسـة الفقر وذل الحاجة، ثم إنَّ نشأته فقيرا تجعله يحس بإحساس الناس ويندمج فى أوساطهم ويتعرف خبيئة نفوسـهم ودخائل مجتمعهم ويستشعر مشاعرهم، وذلك أمر ضرورى لكل من يتصدى لعمل يتعلق بالمجتمع»[1].

وقد حفظ- رحمه الله- القرآن وهو ابن سبع سنين.

يقول رضى الله عنه: «حفظت القرآن وأنا ابن سـبع، وحفظت الموطأ وأنا ابن عشر».

وذكر ياقوت الحموى أنه اسـتعار «الموطأ» من رجل بمكة وحفظه فى تسع ليالٍ!!

(١) السابق نفسه ١/ ١٦.

وقال الشـافعي: «كنت يتيما فى حجر أمى ولم يكن لها مال تعطيه للمعلـم الذى يعلمنـى القرآن، وكان المعلم قد رضى مـن أمى أن أخلفه إذا قـام، فلما ختمت القرآن دخلت المسـجد، وكنـت أجالس العلماء فأحفـظ الحديـث أو المسـألة، وكان منزلنا بمكة فى «شـعب الخيف» فكنت أنظر إلى العظم فأكتب فيه الحديث أو المسـألة، وكانت لنا جرّة عظيمة إذا امتلأ العظم طرحته فى الجرَّة».

وقيل: كان- رحمه الله- فى ابتداء أمره يطلب الشـعر وأيام العرب والأدب، ثم أخذ فى الفقه.

قال مصعب بن عبد الله الزبيرى: أنه كان يسير على دابة له، وخلفه كاتب لأبى فتمثل الشافعى ببيت من الشعر فقرعه كاتب أبى بالسوط ثم قال له: مثلك يذهب بمروءته فى مثل هذا، أين أنت من الفقه؟

قال الشـافعى: فنفعنى الله بكلامه، ورجعت فكتبت عن سـفيان بن عيينة ما شاء الله أن أكتب، ثم كنت أجالس مسلم بن خالد الزنجى.

وقال الشـافعى: كنت أنظر فى الشـعر، فارتقيت عَقَبـة بِمِنىَ فإذا صوت خلفى: عليك بالفقه.

* * *